

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الإهداء

إلى روح الوالد العزيز فى رحاب رب غفور
إلى روح الوالدة الطاهرة التى كانت وراء سطور هذا الكتاب وفى قلبه .
إلى القارئ العربى فى مصر والوطن العربى .
يشرفنا نحن أبناء الدكتور محمود السعران ، أن نقدم الطبعة الثانية من
كتابه « علم اللغة، مقدمة للقارئ العربى » إحياء لذكراه العطرة وتخليداً
لرائد من رواد علم اللغة فى مصر ووطننا العربى .

نهاد محمود السعران

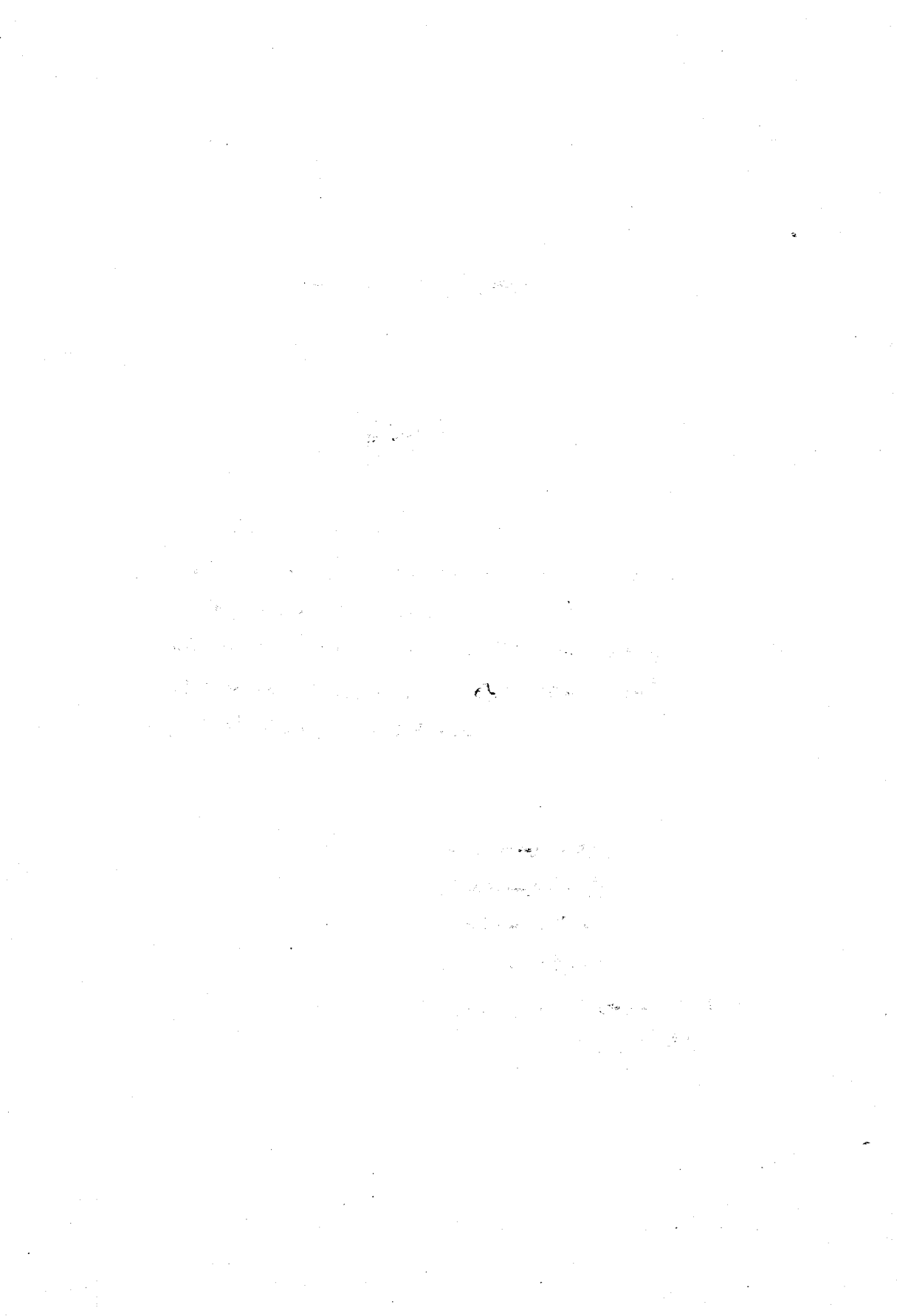
ماجد محمود السعران

ماجدة محمود السعران

محمد محمود السعران

الإسكندرية فى ١٥ رجب سنة ١٤١٢ هـ

٢٠ يناير ١٩٩٢ م



تقديم

بقلم : الدكتور حلم خليل

أستاذ العلوم اللغوية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

اللغة من أعرق مظاهر الحضارة الإنسانية، بل هي أصل الحضارة وصانعة الرقى والتقدم، فهي التي تؤلف الحد الفاصل بين شعب وشعب وبين أمة وأمة، بل بين حضارة وحضارة، لأن الأفراد الذين يتكلمون لغة واحدة، لا يتفاهمون ببسر وسهولة فحسب، وإنما هم قادرون على أن يؤلفوا مجتمعاً إنسانياً موحداً متجانساً، لأن اللغة هي قوام الحياة الروحية والفكرية والمادية، بها يعمق الإنسان صلته وأصالته في المجتمع الذي يولد فيه، حيث تخلق اللغة من أفرادها أمة متماسكة الأصول موحدة الفروع.

وقد حاول علماء اللغة وغيرهم من العلماء والفلاسفة والمفكرين - على مر العصور- أن يسبروا غور هذه الظاهرة الفريدة العريقة في حياة البشر للكشف عن حقيقتها وكنهها. وكان أستاذنا المرحوم الدكتور محمود السعمران واحداً من هؤلاء العلماء الذين أوقفوا حياتهم على دراسة اللغة ونشر المعرفة العلمية الموضوعية المنظمة حولها.

ولم يدرُ بخلدی وأنا أخطو خطواتي الأولى نحو الدراسات العليا (١٩٦٢) وأقرأ عليه - على طريقة السلف - كتابه «علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي» أن الزمن سيدور دورته ويلقى على عاتقي مهمة تقديم الطبعة الثانية من هذا السفر الجليل بعد وفاة صاحبه بثلاثين عاماً، وهو مطلب عزيز أشفقت على نفسي منه ولكني لم أستطع له رداً، اعترافاً بفضلته على وإحياءً لذكرى رائد من رواد علم اللغة في مصر والعالم العربي.

وعلى الرغم من مضي هذه السنوات الطوال على ظهور الطبعة الأولى من الكتاب، طرأ خلالها تطور هائل في حقل الدراسات اللغوية، إلا أنني مازلت أوصي تلاميذي بقراءة هذا الكتاب ليس وفاءً لأستاذي فحسب، وإنما بكل الحيدة والموضوعية، لأنني مازلت أرى أن هذا الكتاب لم يزل محتفظاً بقيمته العلمية حتى اليوم، لأنه يبسط أفكاراً وأصولاً في

ميدان علم اللغة لا يستغنى أى دارس لهذا العلم عن معرفتها قبل أن يخوض فى مدارسه ونظرياته التى تشعبت وتطورت تطوراً هائلاً منذ وفاة الدكتور السعمران حتى الآن.

ومنذ الوهلة الأولى التى تقع فيها العين على عنوان الكتاب : «علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربى (ط. أولى ١٩٦٢)» نشعر مباشرة أننا أمام علم لم يكن - آنذاك - مألوفاً- وأظنه مازال - للقارئ العربى، وإن كانت المعرفة به ودراسته قد أحرزت قدراً غير قليل من التقدم فى المعاهد والجامعات العربية - ومن ثم يسعى الدكتور السعمران - يرحمه الله - إلى تقديم أصول هذا العلم ومبادئه بصورة واضحة وبسيطة لا تخفى بالموضوع وعلميته، ولذلك حرص منذ بداية الكتاب على وضع هذه الأصول فى إطارها التاريخى جنباً إلى جنب مع طرق التحليل اللغوى التى استقر عليها الفكر اللغوى آنذاك. يقول فى مقدمة الكتاب :

«وأنا لم ألتزم فى جملة ما عرضت مذهباً بعينه فى كل أصوله وفروعه من مذاهب الدرس اللغوى المتعددة، بل ركنت إلى التعريف بالأصول العامة التى ارتضيتهما والتى قل أن يختلف فيها أصحاب هذا العلم، مع بيان مصادرها ومذاهب أصحابها فى معظم الأحوال، مع الإشارة فى الوقت نفسه إلى الآراء المخالفة الصادرة عن مذاهب أخرى، حتى يكون القارئ على بينة من المذاهب اللغوية المختلفة، وعلى دراية بالفلسفات التى قامت عليها، وعلى علم بأهم المؤلفات فيها، فلا يضل الطريق فى زحمتها عندما يتاح له الاتصال بشئ منها»^(١)

وبالرغم من هذه الحيدة، إلا أننا نلمح بجانب الالتزام بالإطار التاريخى، التزاماً آخر يتمثل فى «نظرية فيرث»^(٢) التى كان يستهدى بها فى تقديم ترجيحاته وحقاراته بين المدارس اللغوية، وخاصة عندما يتصل الأمر بدراسة المعنى كما سنرى فيما بعد.

(١) علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربى ط. أولى ١٩٦٢ ص ٣.

(٢) فيرث J.R. Firth أستاذ علم اللغة فى جامعة لندن فى الفترة من عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٥٦م، وهو صاحب نظرية سياق الحال Context of situation ومؤسس المدرسة الإنجليزية الاجتماعية فى علم اللغة، وقد تتلمذ عليه الدكتور السعمران، وكان من أنبغ وأحب تلاميذه إليه، وتحت إشراف «فيرث» حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥١م ببحث عنوانه «دراسة نقدية للملاحظات الصوتية للنحاة العرب»

Acritical study of the phonetic observation of the Arab Gvammarians.
وهو من آثار الدكتور السعمران التى لم تنشر بعد، وتوجد منها نسخة على الآلة الكاتبة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية

ولعل من أهم الأصول التي طرحها الدكتور السعمران في كتابه، فكرة «العلمية» Scientifinness ، فالفضل يرجع إليه في شيوعها وتوضيحها، إذ علم اللغة عنده، موضوع محدد يدرس اللغة دراسة علمية موضوعية ، أى يدرسها بغرض الدراسة ذاتها التي تسعى إلى الكشف عن حقيقتها، دون التطرق في هذه الدراسة إلى أهداف أخرى، تعليمية أو تربوية أو عملية، كما لا يدرس اللغة بهدف ترقيتها أو تصحيح جوانب منها أو تعديل أخرى، ومن ثم فإن علم اللغة مقصور عنده على وصف اللغة وتحليلها بطريقة علمية موضوعية.

وتأتى أهمية هذه الفكرة مع التسليم بها الآن، من جدتها - آنذاك - بالنسبة للفكر اللغوى العربى، فلم تكن الدراسة اللغوية عند العرب، وحتى ظهور هذا الكتاب، على هذا النحو من الضبط والموضوعية والتحديد، وكانت فكرة العلمية فى دراسة اللغة فكرة غائمة قد تقال ولكن لا تفهم على النحو الذى شرحه وفصله فى الكتاب.

وتحليل اللغة عنده يبدأ من البنية ، غير أن اللغة - كما نعلم - ليست مجرد بنية، وإنما هى بنية ذات صلة بظواهر أخرى لغوية وغير لغوية، ولذلك نراه يتوقف أمام علاقة اللغة بهذه الظواهر، مثل علاقة اللغة بالكلام ووظيفته، ويعتمد فى تحديد هذه الوظيفة على مفهوم اللغة من حيث هى نظام من الرموز والإشارات الاصطلاحية، ومن ثم يتوقف أمام مفهوم «دى سوسير» للرمز اللغوى وماهيته، لينتهى إلى أن اللغة تشترك مع طائفة أخرى من النظم السمعية والبصرية فى الطبيعة الرمزية.

ولما كانت اللغة أيضا ذات صلة بالظواهر الاجتماعية، أو قل هى ظاهرة اجتماعية معقدة^(١) يرى الدكتور السعمران أن دراستها تحتاج إلى الاستعانة بعلوم أخرى، مثل علم الاجتماع وعلم وظائف الأعضاء، بل بالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس^(٢). ولكن هذه العلوم لا تنفى صفة الموضوعية أو العلمية عن الدراسة اللغوية، وليست فرضاً لميادين أخرى عليها، وإنما هى تنبع من كون اللغة معقدة . غير أنه يستبعد من الدراسة العلمية للغة ما

(١) حول مفهوم الدكتور السعمران حول اجتماعية اللغة انظر كتابه القيم، اللغة والمجتمع ، رأى ومنهج ، الطبعة الثانية ، دار المعارف الإسكندرية ١٩٦٣م.

(٢) أصبحت بعض هذه العلوم الآن بالها من صلة بعلم اللغة فروعاً مستقلة من علم اللغة التطبيقى مثل علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics وعلم اللغة الجغرافى Geolinguistics وعلم اللغة النفسى Psycholinguistics .

يسميه بالفلسفة اللغوية التى تقوم على أسس منطقية وعقلية، ومع ذلك فهو لا يستبعد النظرة الفلسفية ، ويهدف بها مجموعة المبادئ أو الأصول التى يقوم عليها علم اللغة، ويشترط فى ذلك أن تكون هذه الفلسفة مستمدة من اللغة وطبيعتها وإلا فقد علم اللغة استقلاله وموضوعيته، أى لابد أن تقوم هذه الفلسفة على أسس من فهم ماهية اللغة، فيم تستعمل، وكيف تستعمل، أى أن هذه الفلسفة ينبغى أن تستقى عناصرها من طبيعة الأدوار التى تقوم بها فى الحياة الإنسانية . وتتصل بهذه الفلسفة أيضاً عمليات التجريد والتعميم التى يضطر عالم اللغة للقيام بها على مستويات التحليل المختلفة، حتى يسلم وصفه وتحليله، وتصح نتائج، ومن ثم فإن من فلسفة هذا العلم التمييز بدقة بين الدراسة التاريخية للغة والدراسة الوصفية الآتية لها.

وبعد إرساء هذه الأصول حولاً مفهوم علم اللغة وموضوعه وفلسفته ينتقل إلى التحليل البنىوى للغة، ويُعد الدكتور السعران من أوائل علماء اللغة العرب فى العصر الحديث الذين استعملوا مصطلح البنية Structuralism ، وتحليل البنية عنده يبدأ من المستوى الصوتى Phonetics ، ولكنه يمهّد لذلك بلمحة تاريخية عن تطور الدراسات الصوتية عند الهنود واليونان والرومان والعرب حتى يصل إلى التطور الذى أحرزته هذه الدراسات فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

ويعرف علم الأصوات بأنه الدراسة العلمية للحدث الكلامى Speech event دون الإشارة إلى معناه، وتقضى هذه الدراسة العلمية تفتيت الحدث الكلامى وتحليله إلى عناصره المكونة له، وهى عملية تظهر صعوبتها فى دراسة أصوات لغة لا نعرفها، ولما كان الصوت اللغوى يصدر عن جهاز النطق الإنسانى فهو ذو طبيعة خاصة تجعله يختلف عن أى أصوات أخرى، وبناء على ذلك فإن دراسة الأصوات اللغوية أو الحدث الكلامى تمر بمراحل أساسية هى :

١- جهاز النطق وحركاته التى ينتج عنها الصوت اللغوى، وهو ما يختص به علم الأصوات الفسيولوجى Physiological Phonetics .

٢- دراسة انتقال الصوت أو علم الأصوات الأكوستيكي Acoustic Phonetics .

٣- دراسة استقبال أذن السامع للصوت اللغوى، ويختص به علم الأصوات السمعى Auditory Phonetics

ومن الوسائل الأخرى التى يلجأ إليها علم الأصوات ما يعرف بالدراسة الصوتية التجريبية أو الآلية Experimental Phonetics والكتابة الصوتية -Phonetic transcription وهما من الوسائل الفعالة فى التعبير عن الحقائق الصوتية بدقة علمية.

بهذه الفروع لعلم الأصوات يحدد الدكتور السعران الإطار العام لتحليل الحدث الكلامي، ولكنه يرى أن علماء الأصوات وجهوا عنايتهم لدراسة الفرع الأول وبذلوا جهوداً طيبة فى دراسة الفرع الثانى، أما الفرع الثالث فما يزال ينتظر مزيداً من البحث والدراسة. وقد شهدت العقود التالية من هذا القرن ما تنبأ به فى صورة تطور هائل فى دراسة هذا الفرع استخدمت فيه أجهزة وآلات معقدة وأسفر عن نتائج هامة مثل عمليات تخليق الكلام Speech synthesis وتحويل الكلام المنطوق إلى مكتوب وغير ذلك. ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصنيف أصوات اللغة العربية حسب طريقة النطق وموضعه من جهاز النطق وتقسيمها إلى مجهورة ومهموسة، وهو تصنيف قد يلتقى فى بعض جوانبه مع الدراسة الصوتية التقليدية إلا أنه يختلف فى كثير من الحقائق التى لم يفتن إليها القدماء وبعض المحدثين.

وإذا كانت الدراسة على هذا النحو تعد دراسة للصوت اللغوى معزولاً، أى بعيداً عن غيره من الأصوات داخل البنية، فإن الدراسة التكنولوجية تدخل عنده فى صلب الدراسة البنيوية لأصوات لغة ما، حيث تتنوع الأصوات وتختلف عقب دخولها فى علاقات بنيوية داخل هذه اللغة، ومن ثم يجد عالم اللغة نفسه أمام تنوعات عدة لوحدة صوتية معينة. ومع ذلك فإن هذه التنوعات لا تؤدى إلى اختلاف المعنى، بل يمكن ردها إلى أصوات محددة عن طريق تحليل السلسلة الكلامية إلى وحدات متميزة بما لها من صلة بالمعنى، وكان هذا ما اصطلح على تسميته فى علم اللغة «بنظرية الفونيم» وما يتصل بها من مفاهيم وتحليل، حيث يقوم التحليل فيها على تحديد القيم الخلاقية والتقابلية فى أصوات لغة من اللغات، ودراسة النظام التكنولوجى للغة وخصائصه تدخل عنده فى صميم العلاقات البنيوية، ومن ثم فإن التكنولوجيا أو علم الأصوات اللغوية الوظيفي - كما ترجم المصطلح - هو المنوط به تحليل ودراسة هذه العلاقات البنيوية على المستوى الصوتي، ويرى أن الفصل بين علم الأصوات Phonetics وعلم الفونولوجى Phonology لا يؤدى بالضرورة إلى اعتبار كل واحد منهما علماً مستقلاً، ويذهب إلى أن دراسة الظواهر الصوتية والفسولوجية الخاصة بالكلام الإنسانى ينبغى أن تسير موازية للدراسة الفونولوجية، وأن الفصل بين

العلمين هو لون من العبث، إذ أن كلا منهما يعتمد على الآخر، وهى نظرة انفرد بها الدكتور السعران، وهى عكس ما نادت به «مدرسة براج» من الفصل بين علم الأصوات من حيث هو علم طبيعى وعلم الفنولوجيا من حيث هو علم لغوى.

ومن التحليل الفنولوجى ينتقل إلى التحليل النحوى ، ويرى أن ذلك يتم من خلال موضوعين منفصلين ومتصلين فى آن واحد، وهما :

٢- النظم Syntax

١- المورفولوجيا Morphology

وهذا التناول عنده يتم بناء على أصول ومفاهيم شكلية، لأن كل لغة تعرض المعانى بطرق خاصة، ونحن نتلقى هذه المعانى مرتبة بالترتيب الذى يقدمه لنا الكلام، أى فى الصور والأشكال اللفظية التى يظهر بها الكلام، ومن أهم صفات التحليل النحوى لهذه الأشكال النطقية، أن يستبعد عالم اللغة الأصول الفلسفية القديمة فى التحليل كما يستبعد التقديرات الفعلية وما يتصل بها من تأويل وتفسير، ومن ثم فإن أهم ما يوصف به التحليل النحوى أن يكون شكلياً أو صورياً؛ لأن هدفه هو الصور اللفظية وتصنيفها وتوزيعها على أسس معينة، ثم نضيف العلاقات الناشئة بين الوحدات اللغوية داخل الجملة، وهذا هو رأى مدرسة التحليل، إلى المكونات المباشرة Ic Analysis أو مدرسة بلومفيلد التى كانت مهيمنة إلى حد ما على الفكر اللغوى آنذاك، غير أن الدكتور السعران يرى أن هذا التحليل من ناحية أخرى هو تحليل وظيفى Functional يقوم أيضاً على الدور الذى تقوم به الوحدات اللغوية داخل الجملة، سواء من حيث المبنى أو المعنى، وهو بهذا يحاول التوفيق بين آراء «مدرسة بلومفيلد» الكلية واستبعادها للمعنى، وآراء المدرسة الإنجليزية الاجتماعية التى ينتمى إليها والتى تنطلق من المعنى. وصدد هذا يقول:

«ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا لا يتضمن استبعاد المعانى كمعالم أو مشيرات فى المراحل الأولى من التحليل النحوى، كما أن ما قلناه من أن التحليل النحوى لا يلجأ إلى المعنى لا يتضمن أن عرض نظام نحوى ما ينبغى ألا يقرر أى معان أو فصائل دلالية ترتبط ارتباطاً وثيقاً أو ضعيفاً بالفصائل الشكلية، ولو أنه من الواضح أن الأفضل أن مثل هذه المعانى ينبغى أن تقرر فى عبارات موضوعية»^(١)

(١) علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربى ط. أولى ص ٩٧ - ٩٨ .

ثم ينتهى من هذه المناقشة لدور المعنى فى التحليل النحوى ليقدر أن تحليل اللغات قد كشف عن درجة كبيرة من التطابق بين الوحدات الدلالية والوحدات النحوية، مما أغرى عدداً كبيراً من علماء اللغة بالربط بين التحليل النحوى والمعنى^(١).

ولا شك أن أستاذه «فيرث» كان واحداً من هؤلاء اللغويين الذين ربطوا بين التحليل اللغوى والمعنى، ولكن سطوة المدرسة الشكلية الأمريكية - آنذاك - كانت تحول دون ظهور عمق التحليل اللغوى وموضوعيته من حيث ارتباطه بالمعنى، سواء عند «فيرث» أو غيره من علماء اللغة، غير أن ذلك قد تحقق بعد ذلك فى صورة نظرية علمية هى النظرية التوليدية التحويلية TG. grammar وخاصة فى تعاملها مع البنية العميقة للتراكيب النحوية حيث يتجلى المعنى الحقيقى لأى جملة، وقد ذاعت وانتشرت هذه النظرية بعد وفاة الدكتور السعران بسنوات قليلة.

أما المستوى الدلالى فى الكتاب فيغلب عليه الطابع التاريخى، وهو يقرر أن دراسة المعنى أو علم الدلالة Semantics باعتباره فرعاً من فروع علم اللغة هو غاية الدراسات الصوتية والتكنولوجية والنحوية والمعجمية. - أو كما يقول - هو قمة هذه الدراسات لأن علم اللغة لا يتيسر أن يقوم دون تصور الوحدات اللغوية وما يرتبط بها من معنى.

وهنا يتضح انحيازه الكامل إلى المدرسة الاجتماعية الإنجليزية التى يتزعمها أستاذه «فيرث»، فالسياق أو العناصر غير اللغوية عنده كما هى عند أستاذه - ذات دخل كبير فى تحديد المعنى، إذ هى جزء من الموقف الكلامى كما يتمثل فى المتكلم والسامع وما بينهما من علاقات، وما يحيط الكلام من ملاحظات وظروف، ويدل على ذلك بنصوص يستقيها من القرآن الكريم والشعر الجاهلى وأمثال العرب والشعر الصوفى والأحاديث اليومية.

ثم يتوقف بعد ذلك أمام تحصيل المعنى وخاصة عند الأطفال الذين يسمعون كلاماً متصلاً مرتبطاً بسياقات مختلفة وبكثرة التكرار والتقليد وإرشاد من حولهم تأخذ بعض الأصوات فى الدلالة على المعنى. وصدد هذا يرى أن التقليد والسماع هما وسيلتا الطفل فى تحصيل المعنى الذى يرتبط بالكلمات المفردة عند الطفل دون التراكيب. ولكن النظرية

(١) السابق نفس الصفحة.

اللغوية المعاصرة ترفض الآن فكرة التقليد لتفسير اكتساب الطفل للغة، ونادت بالقدرة الفطرية Innate Property التى يولد الطفل مزوداً بها والتى تعينه على التحصيل والتحكم فى مستويات اللغة المختلفة.

وفى تحليله للمعنى يقف به عند حدود الفرق بين المضمون المنطقى الذى يعادل عنده المعنى المعجمى والمضمون النفسى الذى يختلف من فرد إلى فرد طبقاً لثقافته وطبقته الاجتماعية. ويخلص إلى أننا لا نستعمل الكلمات بمعناها المنطقى منفصلاً عن مضمونها النفسى، وهى نظرة يجاوزها الآن علم الدلالة التركيبى الذى استقر واتضحت مناهج التحليل الدلالى فيه مع استقرار علم الدلالة التولىدى فى الثمانينات من هذا القرن، أى بعد وفاة الدكتور السعران بعقدين من الزمان.

وتحت عنوان مناهج دراسة المعنى يعرض لتاريخ الدرس الدلالى منذ نشأته على يد «ميشيل بريل» عام ١٨٩٧م وحتى ظهور نظرية أستاذه فيرث فى الأربعينيات من هذا القرن، ويقسم هذا التاريخ إلى قسمين، الأول خاص بكتابات غير اللغويين والثانى خاص بكتابات علماء اللغة. وتبدأ النظريات اللغوية فى دراسة المعنى عنده - كما هى عند كثير من علماء اللغة - منذ «دى سوسير» الذى يشير إلى قيام نظريته فى اللغة على هدى من نظرية «دوركايم» الاجتماعية، والتى تصبح اللغة فيها من جملة الظواهر الاجتماعية، ويفرق بين ثالث «دى سوسير» الشهير : اللسان Langue واللغة Language والكلام Parole لينتهى إلى أن لغة مجتمع ما، هى ظاهرة مستقلة عن الفرد، وأن الكلمات من حيث هى علامات ذات وجود مستقل، وأن معناها اجتماعى فى جوهره، ولذلك فإن القيمة اللغوية للكلمة تكمن فى شيئين، الفكرة والصورة السمعية التى تدعو الفكرة، ومن ثم فإن الكلمة داخل النظام اللغوى ما هى إلا علامة لغوية تفرق بين فكرتين، وأن قيمة كل علامة تتوقف على وجود سائر العلامات الأخرى، ثم ينتقل بعد ذلك إلى المدرسة السلوكية أو «مدرسة بلومفيلد» ويعرض نظريته وخاصة فيما يتصل بتحليل المعنى ودراسته.

أما المدرسة الاجتماعية الإنجليزية أو «مدرسة فيرث» فهى تمثل عنده آخر المدارس اللغوية التى اهتمت بقضية المعنى، فيقف عندها تفصيلاً عارضاً لآراء أستاذه «فيرث» ونظريته فى سياق الحال Context of situation ويرى أن هذه المدرسة تنظر إلى المعنى على أنه وحدة مركبة من مجموعة من الوظائف اللغوية الصوتية والفنولوجية والمرفولوجية

والنحوية، ولكى نصل إلى حقيقة المعنى لابد من تحليل هذه الوحدة على المستويات اللغوية مع بيان العوامل الخارجية والسياق الاجتماعى . وقد طورَ هذه النظرية فيما بعد بعض علماء اللغة البريطانيين أمثال هاليداي وماكنتوش وإنكفت وغيرهم فى إطار ما يسمى الآن بعلم اللغة الاجتماعية حيث انصب اهتمامهم على مظاهر التنوع فى استعمال اللغة والعوامل اللغوية وغير اللغوية المؤثرة فى الكلام أو النص، ويميزوا بين أبعاد ثلاثة فى الحدث اللغوى: هى مادته وشكله وسياقه، ورأوا أن التنوع فى استخدام اللغة هو نوع من السياقات التى تتلازم مع مجموعة من الملامح اللغوية التى تعكس بدورها ملامح لموقف معين، وكل ذلك يحتاج إلى تصنيف وتحليل وتحديد فى إطار الاستعمال العام للغة فى مجتمع معين، وكل ذلك تم بعد وفاة الدكتور السعران بسنوات غير قليلة.

بهذا التاريخ للنظريات اللغوية فى الدراسة الدلالية ينتهى الكتاب. وصدد هذا لابد من الإشارة إلى قائمة المصادر والمراجع الأجنبية التى حرص على أن يضعها بين يدي القارئ وهى فاتحة انفرد بها هذا الكتاب لأول مرة فى اللغة العربية، كما زود الكتاب بمعجم خاص بالمصطلحات اللغوية باللغة الإنجليزية ومقابلها باللغة العربية، ومعظم هذه المصطلحات كان جديداً على اللغة العربية. وهوامش الكتاب تزخر بمناقشة واسعة لكثير من المصطلحات التى وضعت قبل ظهور الكتاب ورأيه فيها والمصطلح الذى ارتضاه وأسباب ذلك وهى فى ذاتها دراسة لعلم المصطلح اللغوى انفرد بها هذا الكتاب عما قبله وعما بعده أيضاً¹.

والحق أنه بظهور هذا الكتاب عام ١٩٦٢ اكتملت لأول مرة فى اللغة العربية الصورة العلمية لعلم اللغة، أو بمعنى أدق الجانب النظرى فيما يسمى بالبنوية الوصفية فى دراسة اللغة من حيث الأصول العامة ومستويات التحليل. وقد استطاع هذا الكتاب أن يهز ويزعزع - على الأقل داخل الجامعة - الكثير من الأفكار التى قام عليها التفكير اللغوى التقليدى، فزلزل فكرة اكتمال علوم اللغة العربية بما طرحه من مبادئ وأصول فكانت التفرقة بين دراسة اللغة من حيث هى ظاهرة إنسانية عامة ودراسة اللغة من حيث هى لغة معينة أمراً لم يلتفت إليه أحد من القدماء وكثير من المحدثين قبل ظهور هذا الكتاب، كما وضع أيضاً فكرة التطور اللغوى من حيث الفرق بين الدراسة الآتية synchronic أو الوصفية والدراسة التعاقبية Dycronic أو التاريخية ، كما حدد وأشاع الفرق بين دراسة اللغة المنطوقة ودراسة اللغة المكتوبة، كما طرح الكتاب أيضاً مبدأ الموضوعية والعلمية فى

الدراسة اللغوية، من حيث اعتماده على وصف اللغة وتحليلها دون تقويمها أو الحكم عليها، فليست هناك من الناحية اللغوية الخالصة لغة أفضل من لغة ولا لهجة أجمل من لهجة. ومن ثم أصبحت اللغة العربية كغيرها من اللغات، يمكن أن يطبق عليها ما يطبق على اللغات الأخرى من نظريات، وأن تحلل بمناهج وطرق لم يعرفها القدماء، وإن امتازت عن غيرها من اللغات، وطبقاً لمعايير غير لغوية دينية أو حضارية .

على هذا النحو من الدقة والوضوح والشمول ظهر هذا الكتاب فى أوائل العقد السابع من هذا القرن، والذي نضع بين يدى القارئ طبعته الثانية دون إضافة أو حذف. وعلى الرغم من مرور هذه السنوات الطوال، مازال الكتاب مطلوباً يقرأ ويرجع إليه، ومازالت المكتبة اللغوية العربية تفتقر إلى مثله مع ما طرأ من تطور هائل فى حقل هذا العلم منذ وفاة هذا العالم الجليل، ولو امتد به العمر لكان أجدر من يقوم بذلك.

رحم الله أستاذنا الدكتور محمود السمران وتغمده بعفوه ومغفرته وأسكنه جنته.

حلمى خليل

الإسكندرية فى ٢٠ / ١ / ١٩٩٢م